توعية الناس وتثقيفهم في الفتن في الحالة الراهنة: دراسة تحليلية

The Guidance and education of people about Seditious

in the Present Era: An anlytical study

حافظ رويفع خان *

د.ضياء الرحمن**

ABSTRACT

The subject of Fitana(trials) is very broad and has many aspects. This humble work focuses on one important aspect that is awareness. Fully educating the generations on how to face the time of trials and to know the reality and effects of these trials and tribulations. Furthermore, it is also important to note the intensity of the threat it poses and wisely chalking out a strategy to interact with them and to assess the damage made to human life in the light of guiding principles and provisions derived from the Quran and the Sunnah of the Holy Prophet (ﷺ) and biographies of our righteous ancestors. If the Muslim community follows them in true letter and spirit, it will never be regretted or disappointed. The guiding principles include ignoring rumors by encouraging sensible use of tongue and verifying the news before believing it. Spreading rumors is one of the deadliest weapons of enemies to destroy unity of the Ummah and creating atmosphere of chaos and anarchy. Precisely, it is evident that objectives of Sharia cannot be ensured, and Islamic renaissance cannot take place in the absence of self-consciousness, non-inclusive education system and without being cognizant of events around us.

Key wards: current status, Awareness, education, Tribulations, Seditious.

* محاضر مشارك في قسم الدراسات الاسلامية، الجامعة الإسلامية ، بهاولبور

** أستاذ مشارك في قسم الدراسات الاسلامية، الجامعة الإسلامية ، بهاولبور

توطئة:

إن موضوع الفتن واسع وله عدة منطلقات بحيث يتعذّر على الباحث أن يتناول جميع المنطلقات في بحث واحد في آن واحد، غير أن هذه الرسالة العلمية تتركز على خطة مهمة وهي الوعي وتوعية الأجيال وتثقيفهم وقت الفتن والتعرف على حقيقتها والتعامل الرشيد معها بما يتناسب خطورتها وأهميتها، والنظر في آثارها الواقعية على الحياة البشرية، مع ذكر أهم الضوابط والقواعد الشرعية التي استنبطها العلماء من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح إذا ما تمسك بها المجتمع المسلم فإنه لن يندم ويخيب أبداً، وفيه تحصين النفوس من الشائعات المفسدات بالتشجيع على حفظ اللسان والتبين والتثبت عند سماعها لأنها تعدّ من أمضى الأسلحة التي يستعملها أعداء الأمة، لاختراق صفوفها، وتمزيق وحدتها إبّان الفتن. وهي طريقة ممثلة لنجاح الدعوة إلى الله تعالى، إذ أن كثيرا من التداعيات التي تشهدها الساحة الإسلامية إنما تعود إلى غياب الوعي وانعدام التوعية، فلا تحقيق لمقاصد الشريعة الإسلامية، ولا نهضة بدون وعي وبدون توعية وتثقيف.

تعريف التوعية والتثقيف لغة واصطلاحا:

التوعية لغة: مصدر وعّى وهي التفهيم والتوضيح والإرشاد، وهي مأخوذة من الوعي: وهو الحفظ والفهم والإدراك والعمل، والأصل في الوعي ضم الشيء[(١)].

اصطلاحاً: للتوعية معان عديدة تستمد في الأغلب من غايتها، وهي توضيح الشيء، أو التوجيه نحو أمر مرغوب فيه من خلال القيام بمجموعة معينة من الأنشطة، مثل: المحاضرات والندوات والمؤتمرات وورش العمل... [(٢)] يعني هي نشاط يهدف لتركيز انتباه مجموعة واسعة من الناس إلى مسألة أو قضية معينة. وهي مهمة الأنبياء عليهم السلام ومهمة نبينا ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[(٣)]، وقال عنه ربنا سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[(٤)] .

---

(١) ابن فارس، احمد بن فارس، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، (١٢٤/٦).

(٢) عمر صالح بن عمر، مفهوم الوعي والتوعية وأهميتهما، رسالة صغيرة، لم يطبع، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ص ٧.

(٣) سورة ابراهيم: ٤.

(٤) سورة الجمعة: ٢.

وأما التوعية الدينية؛ فيمكن تحديدها في التعريف بأنها: "تزويد أفراد المجتمع بمبادئ الشريعة السمحة وقيمها العليا التي تعمل على حفظ الدين وترجمته ترجمة عملية في حياة الناس"(١).

التثقيف لغة:

التثقيف مصدر ثقّف، مشتق من الثقف، ومادته: الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة دَرْءِ الشيء. ويقال: ثَقَّفْتُ القناةَ؛ إذا أَقَمْتَ عِوَجَها. ثقَّف الشيءَ: أي أقام المعوَجَّ منه وسوّاه، وثقَّف الإنسان: أي أدّبه وهذبه وعَلَّمه، وثقَّف المعوجَّ: أي سوّاه وقوَّمه، وثقَّف الأخلاق: أي أصلح السلوك والآداب(٢).

اصطلاحاً: تثقيف البلد: معناه إصلاح أمره أو تقوية وسائل دفاعه. ويقال الطَّبقة المثَقَّفة: يعني هم أهل الفكر والثَّقافة الذين يشكّلون نخبة سياسيّة أو اجتماعيّة أو فنيَّة. والرَّأي العام للمثقَّف: هو الرأي الذي يمثله المتعلِّمون سواء أكان تعليمهم عاليًا أو متوسِّطًا(٣).

أهمية الموضوع:

وهي تلعب دوراً هامًّا في أي مجال في رفع مستوى المعرفة، واتخاذ أفضل السبل التي تكفل الوصول إلى النتائج المرجوة، وهي لا تقتصر فقط على ضرورة المحافظة على الأجيال والنفوس، بل يمتد الأمر إلى التوعية بالمحافظة على بيئتها، وطرق تربيتها وتحصينها.

ويمكن تلخيص أهمية هذا الموضوع في النقاط الآتية(٤)، فمن أهمها:

١- يكفي التوعية والتثقيف أهمية أن شرعها الله للعباد، وذلك مع الحث على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٥). وبها يتحقق الأمن بين العباد، وتزدهر البلاد، وينزوي الانحراف والفساد وتعم السعادة كافة الأفراد.

٢- إذا كان المقصد من الشريعة الإسلامية تكوين الفرد الصالح، فلا يتم ذلك إلا عبر عملية توعوية تربوية يتلقى فيها الفرد مبادئ الشريعة السمحة وقيمها العليا منذ ولادته، وتوجيهه للقيام بدوره الرسالي.

---

(١) مفهوم الوعي والتوعية، ص ٤٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة، لإبن فارس، (٣٨٢/١).

(٣) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٣٩ هـ - ٢٠٠٨ م، (٣١٨/١، ٣١٩).

(٤) مفهوم الوعي والتوعية، ص ٢٥، ٢٦، "بتصرف".

(٥) سورة الحج: ٧٧.

٣- إن التوعية بما فيها من تذكير بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لكفيلة بالحد من الجهل، والعمل على إشاعة العلم، وتساعد على التثقيف الديني وتغيير مفاهيم المجتمع نحو الأفضل وتعديل سلوك الأفراد.

٤- التوعية والتثقيف توسع أفق الإنسان ووعيه عن طريق إمداده بالمعرفة الدينية الخاصة فيما يتعلق بعلاقة الفرد بربّه أو بعلاقته بالناس.

٥- إن توعية الفرد وتثقيفه بالقيم والمبادئ الدينية تجعله قادراً على مخالطة الآخرين والتعاون معهم، فيرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويقدم العون للمحتاجين، قال عليه الصلاة والسلام: ((والله في عون المرء ما كان في عون أخيه))[١].

التوعية والتثقيف في نصوص الشريعة:

فمصطلح التوعية والتثقيف لا نجدهما في نصوص الشرعية، بل نجد معناهما من وعظ وإرشاد وتبليغ وبيان وإنذار وتبشير وتذكير وتزكية وتربية وتعليم وغيرها من المصطلحات الأخرى، فكل من هذه المصطلحات يتضمن مفهوماً متقاربة ومتشاملة في المعنى، وهي تعنى بشكل متوازن بالجوانب العبادية، والمسلكية، والصحية، والبيئية، والاجتماعية، إضافة إلى التوعية بالنواحي الأمنية.

فالتوعية لا تكتفي على الدورات التدريبية، والحملات الإعلامية بل فأي طريقة توصل إلى المعلومات الصحيحة، أو التحذير من التصرفات الخاطئة، تعدّ من وسائل التوعية.. حتى إن وصل الأمر إلى مجرد حديث بين طرفين، فإذا كان هذا الحديث يهدف إلى نقل الخبرة، وخلاصات التجارب، والتحذير من الممارسات الخاطئة فإنه يعدّ من أنجح وسائل التوعية.

وحين نتحدث عن التوعية الدينية فإننا نتحدث عن تجليات الإسلام الشمولي العالمي الواقعي المتوازن على مستوى الحياة الفردية والجماعية والأسرية والمجتمعية وعلى مستوى الأمة والإنسانية، انطلاقا من الرؤية التوحيدية ومناهج الحياة الإسلامية. ومن ثمّ تكون التوعية الدينية في حقيقتها تجسيدا واقعيا ملموسا للرؤية الكونية الإسلامية ولنظم الحياة الإسلامية في العقيدة والشريعة والأخلاق[٢].

---

(١) الشيباني، أحمد بن مُحَمَّد بن حنبل، ابو عبد الله، مسند الإمام أحمد بن حنبل، باب: مسند أبي هريرة، (١٣/١٣٠) برقم ٧٧٠١، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م. وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٢) مفهوم الوعي والتوعية، ص ٢٥.

مثال ذلك ما جاء في التوعية النبوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين قال: ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[١]، ومثل ما جاء في التدرج في الإصلاح بين الزوجين؛ من وعظ وهجر في المضجع وضرب تأديبي غير مبرح، مع مراعاة عدم البغي على الزوجة بأي شكل من الأشكال، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[٢]. بهذا المنطق القرآني التوعوي يوضح الإسلام منهج التوعية الدينية المتميز بالنزوع نحو التربية والتدرج والسعي إلى الحفاظ على الوفاق الأسري والوصول إلى صلاح المجتمع بكل الوسائل المشروعة.

فجاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: ((ليُبلّغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يُبلّغ مَن هو أوعى له منه))[٣]، و "أوعى" أي: أحفظ، من الوعي وهو: الحفظ والفهم... وقوله: (ليبلغ الشاهد) أي الحاضر في المجلس الغائب عنه، والمراد منه إما تبليغ القول المذكور، أو تبليغ جميع الأحكام.

ومن الأحكام المستنبطة:

الأول: أن العالم يجب عليه تبليغ العلم لمن لم يبلغه، وتبيينه لمن لا يفهمه، وهو الميثاق الذي أخذه الله تعالى عن العلماء ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[٤].

والثاني: أنه يأتي في آخر الزمان من يكون له من الفهم في العلم من ليس لمن تقدمه، وأن ذلك يكون في الأقل، لأن كلمة (رُبّ) موضوعة للتقليل، وكلمة (عسى) موضعها الإطماع، وليست لتحقيق الشيء.

والثالث: فيه أن حامل الحديث يجوز أن يؤخذ عنه، وإن كان جاهلا بمعناه، وهو مأخوذ من تبليغه، محسوب في زمرة أهل العلم[٥].

---

(١) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، ابو الحسن، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص...، (٦٩/١) برقم ٤٩، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ومسند أحمد، (٤٢/١٨) برقم ١١٤٦٠.

(٢) سورة النساء: ٣٤.

(٣) البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل، ابو عبدالله، صحيح بخاري، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع»، (٢٤/١) برقم ٦٧، تحقيق: مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٤) سورة آل عمران: ١٨٧.

(٥) العيني، محمود بن أحمد بن موسى الحنفى بدر الدين، ابو مُحَمَّد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٣٧/٢، ٣٨).

وأيضا ورد فضيلة التبليغ والتوعية والدعاء لهم في حديث جبير بن مطعم ﷺ، قال: قام رسول الله ﷺ بالخيف من منى، فقال: ((نضّر الله امرأ سمع مقالتي، فوعاها، ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يَغلّ عليهم قلب المؤمن: إخلاص العمل، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعْوَتَهم تكون من ورائه))[١].

ففي هذا الحديث دعاء من النبي ﷺ لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه. ولو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفا فإن النبي ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه.

وهذه هي مراتب العلم، أولها وثانيها: سماعه وعقله، فإذا سمعه وعاه بقلبه أي عقله واستقر في قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب. ولهذا كان الوعي والعقل قدرا زائدا على مجرد إدراك المعلوم. المرتبة الثالثة: تعامده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب. المرتبة الرابعة: تبليغه وبثه في الامة ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثه في الأمة، فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لينفق منه وهو معرض لذهابه، فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب، فإذا أنفق منه نما وزكا على الانفاق، فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به، وفرح القلب وسروره به[٢]. وقوله: (فبلغه) أي أداه من يبلغه كما سمعه أي من غير زيادة ولا نقص، فمن زاد أو نقص فهو مغيّر لا مبلّغ، فيكون الدعاء مصروفاً عنه.

خصائص التوعية والتثقيف:

من خصائص التوعية والتثقيف ما يأتي:

١- لا يكفي في التوعية مجرد العلم بالمسألة، بل يحتاج الأمر إلى الاقتناع بها وترجمتها إلى سلوك عملي.

---

(١) القزويني، مُحَمَّد بن يزيد، ابو عبد الله، سنن ابن ماجه، كتاب أبواب المناسك، باب الخطبة يوم النحر، (٢٤٤/٤) برقم ٣٠٥٦، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد وآخرون، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م. صححه الألباني وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره وهذا سند ضعيف. ومسند أحمد، (٣٠١/٢٧) برقم ١٦٧٣٨.

(٢) ابن القيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر، مفتاح دار السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (٩٣/١).

٢- هي توعية شاملة متوازنة تهتم بالمعاملات اهتمامها بالعبادات، لأن الدين يشمل الدنيا والآخرة على حد سواء، وفي هذا يقول حذيفة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: ((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم))[١].

٣- وهي تقوم على النصوص الشرعية في مشروعيتها وأساليب تنفيذها؛ فقد تكون سرّاً وقد تكون جهراً، وقد تكون بالكلمة الطيبة وقد بالمجادلة العلمية، وقد تكون للحاكم وقد تكون للمحكوم، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٢]، وقال ﷺ: ((الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم))[٣].

٤- وهي تقوم على الوسطية، فلا إفراط ولا تفريط "لأنها إذا كثرت لم تؤثر في القلوب، فيسقط بالإكثار فائدة الوعظ[٤]"[٥].

تعليم الضوابط الشرعية لتوعية الناس وأحوالهم في الفتن

تعليم الضوابط الشرعية قبل الفتن

أولاً: الدعاء والتعوّذ:

الدّعاء من أقوى الأسباب في دفع المكاره وحصول المطلوب وأهم وسائل الوقاية من الفتن قبل وقوع الإنسان فيها ومن أنفع الأدوية، وهو عدوّ البلاء الذي يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله، أو يخفه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن وعمود الدين، قال عليه الصلاة والسلام: ((لا يزيد في العمر إلا البرّ ولا يردّ القدر إلاّ الدعاء وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه))[٦].

---

(١) الطبراني، سليمان بن أحمد، ابو القاسم، المعجم الأوسط، باب الميم: من اسمه أحمد، (٢٧٠/٧) رقم ٧٤٧٣، تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين، القاهرة.

(٢) سورة النحل: ١٢٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، (٧٤/١) برقم ٥٥.

(٤) الدمشقي، عبد العزيز بن عبد السلام، ابو مُحَمَّد، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميد، دار المعارف، بيروت، لبنان، (١٧٦/٢).

(٥) مفهوم الوعي والتوعية، ص ٢٢.

(٦) سنن ابن ماجة، كتاب أبواب الفتن، باب العقوبات، (١٥٢/٥) برقم ٤٠٢٢. وحسنه الألباني دون قول "وإن الرجل" ، وقال شعيب الأرنؤوط أيضاً: حسن لغيره دون قول "وإن الرجل".

فالدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان بين السماء والأرض إلى يوم القيامة. فالأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح ليس بحده فقط، لكن أيضاً بضاربه، فمتى كان السلاح سلاحا تامّا لا آفة فيه، والساعد ساعدا قويّا، والمانع مفقودا، حصلت النكاية في العدوّ، ومتى تخلّف واحدٌ من هذه الثلاثة تخلّف التأثير، فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، والداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثمة مانع من الإجابة لم يحصل الأثر(١).

عند الفتن تطيش العقول، وتختار النفوس فلا تدري ماذا تعمل؟ وفي هذا الموقف يغفل كثير من الناس عن سلاح عظيم كان عُدة للأنبياء والصالحين على مرّ الزمان ألا وهو الدعاء، قال تعالى عن نبيه نوح: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (*) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (٢)﴾، وقال عن نبيه ذي النون: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (*) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ...﴾(٣)(٤).

وقد أمر النبيّ ﷺ بالتعوّذ بالله من الفتن قبل وقوعها، فقال في حديث الرؤيا الطويل: ((أتاني الليلة ربّي في أحسن صورة...)) طول الحديث، وفيه قوله تعالى: ((يا مُحَمَّد إذا صلّيت فقل: اللهم إني اسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحبّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين))(٥)، وأيضا قال: ((تعوّذوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن))(٦).

قال ابن حجر رحمه الله – تعليقا على قول عمّار بن ياسر: أعوذ بالله من الفتن –: "فيه دليل على استجباب الاستعاذة من الفتن، ولو علم المرء أنه متمسكٌ فيها بالحق، لأنها قد تفضي ألى وقوع من

(١) أحمد بن إبراهيم بن أحمد، الفتنة وآثارها المدمرة، دار لينا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، ص ٢٠٩، "بتصرف".

(٢) سورة القمر: ١٠، ١١.

(٣) سورة الأنبياء: ٨٧، ٨٨.

(٤) الصيّاح، علي بن عبدالله، من سير علماء السلف عند الفتن، دار مدار الوطن، رياض، طبعة ثالثة، ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م، ص ٩٩، ١٠٠.

(٥) الترمذي، مُحَمَّد بن عيسى، ابو عيسى، سنن الترمذي، كتاب أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ص، (٥/٢٢٠) برقم ٣٢٣٣، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م. وصححه الألباني وقال شعيب الأرنؤوط: ضعيف لإضطرابه. ومسند أحمد، (٣٦/٤٢٢) برقم ٢٢١٠٩.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، (٤/٢١٩٩) برقم ٢٨٦٧.

لا يرى وقوعه، قال ابن بطال: وفيه ردّ للحديث الشائع لا تستعيذوا بالله من الفتن فإن فيها حصاد المنافقين، قلتُ: وقد سُئل ابن وهب قديماً عنه فقال: إنه باطل"[١].

وقد كان السلف نموذجا فريداً في حسن الصلة بالله في حالة الرخاء قبل أن تأتي الشدائد، حتى إذا نزلت الشدائد فدعوا الله استجاب الله لهم، تصديقا لقول النبي ﷺ: ((تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة))[٢]، وقال ﷺ: ((من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء))[٣].

وقال سلمان الفارسي ﷺ: "إذا كان الرجل دعا في السراء فنزلت به ضرّاء، فدعا الله تعالى، قالت الملائكة: صوتٌ معروف، فشفعوا له، وإن كان ليس بدعاء في الرخاء فنزلت به ضرّاء، فدعا الله، قالت الملائكة: صوت ليس بمعروف فلا يشفعون له"[٤].

فعلى الإنسان أن يسأل ربّه كلّ شيء يحتاجه من أمور الدنيا والآخرة وخاصة العصمة من الفتن، لأن الخزائن كلها بيد الله، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾[٥].
فيا أخي عند الفتن والاشتباه اجعل أقوى أسبابك للنجاة الدعاء – بقلب صادق مخلص كدعاء الغريق –، وسترى أثر ذلك جلياً، وما زالت إجابة الداعين أمراً مشهوداً إلى يومنا هذا لمن صدق اللجوء ألى الله تعالى وأتى بشرائط الإجابة[٦].

ثانياً: التزام حصول العلم:

العلم الشرعي حصن حصين، يتقي به المسلم الشهوات والفتن، فهو الضياء والبصيرة التي يبصر بها الرجل مسالك الطريق ودروبه، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

(١) انظر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، ابو الفضل، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تخريج وتصحيح: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ ، (٥٤٣/١).

(٢) مسند أحمد، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، (١٩/٥) برقم ٢٨٠٣. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(٣) سنن الترمذي، كتاب أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، (٣٢٤/٥) برقم ٣٣٨٢. وقال: "هذا حديث غريب" ولكن حسنه الألباني في تحقيقه.

(٤) البغدادي، عبد الرحمن بن أحمد السلامي، جامع العلوم والحكم، تحقيق: د. مُحَمَّد الأحمدي أبو النور، دار السلام، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م، ص ٢٣١.

(٥) سورة الحجر: ٢١.

(٦) انظر: الكتاب "من سير علماء السلف عند الفتن"، ص ١٠٠.

وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]، والعلم هو الفرقان الذي يفرق به المؤمن بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[٢]. فهو حياة القلوب بعد موتها، ونور القلوب بعد ظلمتها، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣].

وقال شيخ الإسلام: "ومما ينبغي أن يُعلم أن أسباب هذه الفتن تكون مشتركة فيرد على القلوب من الواردات ما يمنع القلوب عن معرفة الحق وقصده، ولهذا تكون بمنزلة الجاهلية، والجاهليةُ ليس فيها معرفة الحق ولا قصده، والإسلام جاء بالعلم النافع والعمل الصالح بمعرفة الحق وقصده"[٤].

والعلم يكبت الشهوات ويضعفها، لأنه يورث المراقبة والخوف من الله تعالى، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[٥]، وبالعلم تنجلي الشبهات والظلمات وتظهر حقائق الفتن وكيد أعداء الإسلام، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٦]. ولذلك نفع العلم أصحابه عند نزول الشبهات فلم يخوضوا فيها، قال سفيان الثوري: "العالم يعرف الفتنة وقت إقبالها، فإذا أدبرت يعرفها العالم والجاهل"[٧].

وفي الحديث عن أبي بكرة ﷺ قال: لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام معركة الجمل بعد ما كدتُ أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملّكوا عليهم بنت كسرى، قال: ((لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة))[٨]. وهكذا ينفع العلم أهله، ففقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد.

---

(١) سورة يوسف: ١٠٨.

(٢) سورة الأنفال: ٢٩.

(٣) سورة الشورى: ٥٢.

(٤) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، ابو العباس، منهاج السنة النبوية، تحقيق: مُحَمَّد رشاد سالم، جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، (٥٣٨/٤).

(٥) سورة القصص: ٨٠.

(٦) سورة الرعد: ١٩.

(٧) العواصم من الفتن، ص ٣٠.

(٨) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، (٨/٦) برقم ٤٤٢٥. وسنن الترمذي، كتاب أبواب الفتن، باب (بدون العنوان)، (٩٧/٤) برقم ٢٢٦٢.

فأحيانا يكون العلم فتنة على صاحبه وطالبه وفتنة على الناس إذا كان العلم يُطلب بالنيات الفاسدة الضارّة.. فمثلا للتماري بين السفهاء أو للتفاخر بين العلماء أو للجدال وغيرها، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وتُتخذ سنة، فإن غيرت يوما قيل: هذا منكر؟ قالوا: ومتى ذلك؟ قال: إذا قلّت أمناؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلت فقهاؤكم، وكثر قراؤكم، وتُفُقّه لغير الدين، والتمست الدنيا بعمل الآخرة"(١).

ثالثاً: مصاحبة أهل العلم والصالحين:

إن من أهم ما ينجي المؤمن من المورد في الفتن هو مجالسة الصالحين ومحابتهم وخاصة العلماء الربانيين الذين تذكّر بالله رؤيتهم، ويزيد في العلم منطقهم وتذكّر بالآخرة أعمالهم، فهم زين الرخاء وعدّة البلاء، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهٗ﴾ (٢)، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: "عليك بإخوان الصدق، فعش في أكنافهم، فإنهم زينٌ في الرخاء وعدّة في البلاء"(٣). وقد أخبر النبيّ ﷺ عن فوائد الجليس الصالح فقال: ((إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحاملُ المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخُ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة))(٤).

قال النووي رحمه الله: "فيه فضيلة مجالسة الصالحين، وأهل الخير والمرؤة ومكارم الأخلاق، والورع، والعلم، والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومَن يغتاب الناس، او معروف بكثرة فجوره وبطالته، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة"(٥).

---

(١) الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، أبو بكر، مصنف عبد الرزاق، (٣٥٩/١١) برقم ٢٠٧٤٢، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

(٢) سورة الكهف: ٢٨.

(٣) مُحَمَّد بن حبان، ابو حاتم، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ص ٩٠.

(٤) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء، (٢٠٢٦/٤) برقم ٢٦٢٨. وصحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، (٩٦/٧) برقم ٥٥٣٤.

(٥) النووي محي الدين يحي بن شرف، أبو زكريا، المنهاج شرح صحيح مسلم المعروف باسم "النووي على شرح مسلم"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ، (١٧٨/١٦).

وقال عمر ﷺ: "لاتتكلم فيما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلاّ الأمين، ولا أمين إلاّ من يخشى الله ويطيعه، ولاتمش مع الفاجر فيعلّمك من فجوره، ولا تطلعه على سرّك، ولا تشاور في أمرك إلاّ الذين يخافون الله عز وجل"(١).

وقد أمر النبيّ ﷺ بمجالسة الصالحين، واختيارهم على مَن سواهم، فقال: ((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقيّ))(٢). فالجليس الصالح يذكّرك إذا نسيت، ويعينك إذا ذكرت، ويسترك إذا أخطأت، قال الله تعالى: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (*) هَارُونَ أَخِي (*) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (*) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (*) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (*) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (*) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾(٣).

فبمجالسة أهل الخير يتأثّر بهم، ومن المقرّر عند علماء التربية أن التأثير عن طريق القدوة أبلغ من التأثير بالمقال والنصح، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: ((المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم مَن يخالل))(٤).

قال سفيان بن عُيينة رحمه الله: "انظروا إلى فرعون معه هامان! انظروا إلى الحجاج معه يزيد بن أبي مسلم شرٌّ منه، انظروا إلى سليمان بن عبد الملك صحبه رجاء بن حيوة فقوّمه وسدّده"(٥).

قال ابن تيمية رحمه الله: "الناس كأسراب القطا، مجبولون على تشبّه بعضهم ببعض"(٦)، وقال عليه الصلاة والسلام: ((الأرواح جنودٌ مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف))(٧).

---

(١) الخطابي، حمد بن مُحَمَّد ابن الخطاب البستي، ابو سليمان، العزلة، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، ص ١٤٤.

(٢) السجستاني، سليمان بن الأشعث، ابو داود، سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، (٢٠٣/٧) برقم ٤٨٣٢، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م. وحسنه الألباني وقال شعيب الأرنؤوط أيضا: حديث حسن.

(٣) سورة طه: ٢٩ – ٣٥.

(٤) سنن الترمذي، كتاب أبواب الزهد، باب (بدون العنوان)، (١٦٧/٤) برقم ٢٣٧٨. وحسنه الألباني في تحقيقه.

(٥) العزلة، للخطابي، ص ١٤١.

(٦) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، ابو العباس، مجموع الفتاوى، المحقق: عبد الرحمن بن مُحَمَّد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م. (١٥٠/٢٨).

(٧) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجنّدة، (٢٠٣١/٤) برقم ٢٦٣٨. والبخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، (١٣٣/٤) برقم ٣٣٣٦.

فالمجالسة الصالح يبصّرك بعيوبك، ويدلّ على أوجه الضعف عندك ووجهات النقص ومواطن العلل في نفسك وخُلقك، فتنطلق نحو العلاج وإصلاح الخلل وإزالة العيوب؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: ((المؤمن مرآة المؤمن))[١]. وقال الحسن البصري: "المؤمن مرآة أخيه، إن رأى فيه مالا يعجبه سدّده وقوّمه، وحاطه وحفظه في السرّ والعلانية"[٢].

فبمصاحبة أهل العلم والخير يهابها شيطان الجن والإنس، فمجالستهم حصن حصين من وساوس الشيطان وأذاهم ، بخلاف مجالس الأشرار فإنها مقرّ هذه الشياطين، وكذلك إذا كان المرء معتزلاً فإنه عرضة للوساوس الرديئة والأفكار المنحرفة التي يلقيها الشيطان؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: ((عليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية))[٣].

رابعاً: الامتناع عن الإتيان في مواطن الفتن:

إن من أهم ما يجب على المسلم للوقاية نفسه من الوقوع في الفتن هو الإمتناع عن الورود في مواطن الفتن ومواضعها والابتعاد عنها فعليه أن يتجنّب نفسه عن أسباب الفتن ووسائلها حتى لايقع فيها، وفي الشرع قاعدةٌ محكمة وهي: سدّ الذرائع، بمعنى انغلاق الطرق المؤدية للمعصية، وانفتاح الطرق المؤدية لفعل الواجب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٤]. قال رسول الله ﷺ: ((ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي))[٥].

قال النووي رحمه الله تعالى: "معناه: بيان عظيم خطرها والحث على تجنبها والهرب منها ومن التشبث في شيء منها وأن شرها وفتنتها يكون على حسب التعلق بها"[٦].

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في النصيحة، (٢٧٩/٧) برقم ٤٩١٨. وحسنه الألباني وقال شعيب الأرنؤوط أيضا: حديث حسن.

(٢) ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد البغدادي، ابو بكر، الإخوان، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م، ص ١٣١.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجماعة، (٤١٠/١) برقم ٥٤٧. وحسّنه الألباني وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن من أجل السائب بن حبيش".

(٤) سورة الأنعام: ١٠٨.

(٥) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (١٩٨/٤) برقم ٣٦٠١. وصحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، (٢٢١١/٤) برقم ٢٨٨٦.

(٦) المنهاج شرح صحيح مسلم، ليحي بن شرف النووي، (٩/١٨).

والموفّق مَن وفّقه الله لاجتناب الفتن وأسبابها، فقال عليه الصلاة والسلام: ((إن السعيد لمن جنّب الفتن، إن السعيد لمن جنّب الفتن، إن السعيد لمن جنّب الفتن، ولمن ابتُلي فصبر، فواهاً))[١].

قوله: "لمن جنّب الفتن" أي من تجنب الفتن وتباعد عنها ولزم بيته، وقوله: "سعيد" فعيل بمعنى مفعول، وكرره ثلاثاً مبالغة في التأكيد على التباعد عن الفتن واعتزال فرقها، وقوله: "ولمن ابتلي" أي ابتلى بالوقوع في تلك الفتن فصبر على ظلم الناس له وتحمل أذاهم ولم يدفع عن نفسه[٢]، وقوله: "فواها" معناه: التلهف والتحسر، أي واهًا لمن باشر الفتنة وسعى فيها، وقيل: معناه الإعجاب والاستطابة، أي ما أحسن وما أطيب من صبر عليها[٣].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة، ومن ادعى الصبر وكل إلى نفسه"[٤].

وقال: "فإياك أن تغتر بعزمك على ترك الهوى مع مقاربة الفتنة؛ فإن الهوى مكايد، وكم من شجاع في الحرب اغتيل فأتاه ما لم يحتسب"[٥]. وقال: "ما رأيت فتنة أعظم من مقاربة الفتنة، وقل أن يقاربها إلا من يقع فيها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه"[٦].

قال الشيخ أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني:

من قارب الفتنة ثم ادعى الـ عصمة قد نافق في أمره
ولا يجيز الشرع أسباب ما يورِّط المسلمَ في حظره
فانجُ ودع عنك صداع الهوى عساك أن تسلم من شره[٧]

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة، (٣٢٠/٦) برقم ٤٢٦٣. وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط أيضاً في تحقيقه.

(٢) العزيزي، الشيخ علي بن أحمد، السراج المنير شرح الجامع الصغير، (٣٦/٢).

(٣) السهارنفوري، شيخ خليل أحمد، بذل المجهود في حل سنن أبي داود، تعليق: د. تقي الدين الندوي، دار أبي الحسن الندوي، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، (٣٠٥/١٢).

(٤) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، ابو الفرج، صيد الخاطر، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص ٤١.

(٥) صيد الخاطر، لابن الجوزي، ص ٤١.

(٦) المرجع السابق ، ص ٣٥٠.

(٧) ابن القيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر، روضة المحبين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ١٥١.

ومما يدخل في ذلك البعد عن مجالس الخنا والزور، ومجالس الجدال بالباطل، ومجالس الوقيعة في عباد الله خصوصاً أهل العلم والفضل خصوصاً في أوقات الفتن التي يكثر فيها القيل والقال؛ فالبعد عن الفتن سبيل للنجاة منها إلا من كان لديه علم يزمُّه، وإيمان يردعه، وكان يأنس من نفسه نفع الناس، وتبصيرهم، وكشف الشبه، وبيانَ الحق؛ فأولى لمثل هذا ألا ينزوي في قعر بيته، ويدع الناس يتخبطون في دياجير الظُّلم[١].

خامساً: صيانة اللسان وكفّه:

يجب على كل مكلّف أن يكفّ لسانه ويحفظه عن كل باطل، وفي جميع الأوقات والأحوال، بيد أن يزداد ذلك الحفظ ويتأكد إبان الفتنة، وحلول المحنة، ففيها تكثر الأقاويل، وتزداد شهوة الإشاعات والمبالغات والأباطيل، وعندها تكون الآذان مستعدة لاستقبال كل ما يقال، وفي هذه تمكن الخطورة، فربّ كلمة أشدّ من وقع السيف أيام الفتنة[٢].

وليُعلم أن اللسان من أخطر ما خلق الله في جسم الإنسان، لذا يقول تعالى منبهاً المؤمنين: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [٣] ، وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٥].

قال الإمام النووي رحمه الله: "إعلم أنه ينبغي لكل مكلّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلامًا تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجرّ الكلام المباح إلى حرام، أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء"[٦].

وقال يحي بن معاذ: "القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض، وعُذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه

---

(١) الحمد، محمَّد بن ابراهيم، معالم في التعامل مع الفتن، دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، ص ٦٧، ٦٨.

(٢) الحازمي، حسين بن محسن، ابو أنس، موقف المسلم من الفتن، مكتبة أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، ص ٤٠٦.

(٣) سورة الإسراء: ٥٣.

(٤) سورة ق: ١٨.

(٥) سورة الفجر: ١٤.

(٦) النووي، يحيى بن شرف، الأذكار، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، دار الفكر ، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، ص ٥١٦.

اغتراف لسانه"[١]، أي: كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقة ذلك، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه فتذوق ما في قلبه من لسانه كما تذوق ما في القدر بلسانك"[٢].

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم، وغير ذلك ويصعب عليه التحرز والتحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين، والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يُلقي لها بالاً، قد تهوي به في النار سبعين خريفاً، وتهوي به في النار أبعد مما بين الخافقين (بين المشرق والمغرب)، وكم ترى من رجل متورع عن الفحش والظلم، ولسانه ينتهك أعراض الأحياء والأموات وينهش في لحومهم ولا يبالي ما يقول[٣].

فمما ورد في التحذير من آفة اللسان عموما: سؤال معاذ بن جبل ﷺ النبيَّ ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، فأخبره برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: ((ألا أُخبرك بملاك ذلك كله؟)) قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه ثم قال: ((كُفّ عليك هذا))، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ((ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم – أو مناخرهم – إلاّ حصائد ألسنتهم))[٤].

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: "إذا أراد الكلام فعليه أن يفكّر قبل كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلّم، وإن شكّ لم يتكلم حتى تظهر"[٥].

---

(١) الأصبهاني، أحمد بن عبد الله، ابو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ، (٦٣/١٠).

(٢) ابن القيم الجوزي، مُحَمَّد بن أبي بكر شمس الدين، الجواب الكافي، دار المعرفة، المغرب، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، ص ٢٧٦.

(٣) موقف المسلم من الفتن، لأبي أنس الحازمي، ص ٤٠٨.

(٤) سنن الترمذي، كتاب أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، (٣٠٨/٤) برقم ٢٦١٦. ومسند أحمد، (٣٤٥/٣٦) برقم ٢٢٠١٦. قال شعيب الأرنؤوط: صحيح بطرقه وشواهده.

(٥) الأذكار، ليحيى بن شرف النووي، ص ٥١٧.

وقال ابن القيم رحمه الله: "والكلام أسيرك، فإذا خرج من فِيك صِرت أنت أسيره، والله عند لسان كل قائل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١]"[٢].

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: ((تكون فتنة تستنظِف العرب، قتلاها في النار، اللسان فيها أشدّ من وقع السيف))[٣]. أي: وقعه وطعنه، ويدل عليه رواية: (إشراف اللسان) أي: إطلاقه وإطالته أشد من وقع السيف، لأن السيف إذا ضرب به أثّر في واحد، واللسان تضرب به في تلك الحالة ألف نسَمة[٤].

تعليم الضوابط الشرعية أثناء الفتن

أولاً: الإيمان بالقدر خيره وشرّه:

الإيمان بالقضاء والقدر يعني الإيمان بأن الله تبارك وتعالى قدّر الأشياء في القدم، وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى، وعلى صفات مخصوصة وهي تقع حسب ما قدّرها، والرضى والتسليم لله تعالى في كل ما قدّر وقضى سواء كان خيراً أو غيره[٥].

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما: ((يا غلام إنّي أعلّمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصّحف))[٦].

ولقد جاءت الآيات القرآنية في غير موضع تبين أن كل ما يحدث على هذا الكوكب الأرضي إنما يحدث بتقدير من الله وحساب، وتبين أن كل ما يحدث للعبد من خير أو شر في هذه الحياة الدنيا

---

(١) سورة ق: ١٨.

(٢) الجواب الكافي، ص ٢٨١.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الفتن، باب في كفّ اللسان، (٣٢٢/٦) برقم ٤٢٦٥. ومسند أحمد، (٥٦٢/١١) برقم ٦٩٨٠. ضعّفه الألباني وقال شعيب الأرنؤوط أيضاً: إسناده ضعيف لضعف ليث.

(٤) المباركفوري، محمّد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم، أبو العلاء، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، تحقيق: عبد الوهاب بن عبد اللطيف، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٣٨٣هـ – ١٩٦٣م، (٤٠٣/٦).

(٥) شيخ سيد سابق، العقائد الإسلامية، دار الكتب الحديثة، ١٣٩٦هـ، (٨٥/٣).

(٦) سنن الترمذي، كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (بدون العنوان)، (٢٤٨/٤) برقم ٢٥١٦. وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني. انظر: "مجمع الزوائد"، (٣٢٩/٢).

إنما هو بقضاء الله وقدره، وتحث العباد على الرضا والقبول بما قدره الله، وتبين أيضاً أن خير وسيلة للوقاية من الفتن بكل أنواعها هو الإيمان بأن ما أصابنا ما كان ليخطئنا وما أخطأنا ما كان ليصيبنا.

كما أن الإيمان بالقضاء والقدر يخفف وقع المصائب الدنيوية على العبد سواء كانت في المال أو في الجسد أو في الولد، ويجنبه الوقوع في فتن المصائب الدنيوية، فالعبد المؤمن بالقضاء والقدر يعلم أن المصيبة إن صبر عليها انقلبت إلى نعمة وبشرى له كما قال سبحانه: ﴿...وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (*) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١).

وأما غير المؤمن بقضاء الله وقدره فإنه يقابل المصيبة بالتضجر والاعتراض والشعور بالظلم ناهيك عن بعض الكلمات الكفرية التي قد ينطق بها بعض الناس عند المصيبة، فهؤلاء يقعون في فتنة المصائب الدنيوية التي تضيف إلى مصائبهم الدنيوية مصائب أخروية لعدم رضاهم بقدر الله وإيمانهم به، لقد بيّن الله تعالى في غير موضع من كتابه أن كلّ مصيبة تحدث للعبد في هذه الحياة الدنيا إنما هي بتقدير من الله وحساب وذلك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا...﴾(٢)، "والمعنى أنه لن يصيبنا خير ولا شر ولا خوف ولا رجاء ولا شدة ولا رخاء إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله"(٣).

فالمصيبة في الأرض نحو الجدب وآفات الزروع والثمار وفي الأنفس نحو الأدواء والموت وهذه المصائب قد كتبت في اللوح المحفوظ، وإن تقدير كل ذلك وإثباته في اللوح يسير على الله وإن كان عسيراً على العباد، ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه فقال: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ يعني أنكم إذا علمتم أن كل شيء مقدر ومكتوب عند الله فلِمَ أساكم على الفائت، وفرحكم على الآتي، لأن من علم أن ما عنده معقود لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده لأنه وطَّن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أنَّ بعض الخير واصل إليه وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله(٤).

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ (٥).

---

(١) سورة البقرة: ١٥٦.

(٢) سورة التوبة: ٥١.

(٣) الرازي، مُحَمَّد بن عمر بن الحسن التيمي، ابو عبد الله، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، (٨٧/١٦).

(٤) انظر: الزمخشري، محمود بن عمر بن مُحَمَّد، ابو القاسم جارالله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ. ١٩٩م، (٤٦٧/٤).

(٥) سورة التغابن: ١١.

هذا هو الإيمان الذي يردّ العبد فيه كل شيء إلى الله، ويعتقد أن كل ما يصيبه من خير ومن شر فهو بإذن الله، وهي حقيقة لا يكون إيمان بغيرها...، وبهذا قد يتسامى إلى آفاق فوق هذا فيشكر في السراء وفي الضراء إذ يرى في الضراء أيضاً رحمة وخيراً وفضلاً بالتنبيه من الغفلة أو بالتكفير للسيئات أو بترجيح ميزان الحسنات، وأما قوله: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ فقد فسرها بعض السلف بأنها الإيمان بقدر الله والتسليم له عند المصيبة[١].

فمن خلال هذه الآيات وأقوال المفسرين فيها يتبين للباحث أنه ما من مصيبة في الأرض إلا وتحدث بتقدير الله وقضائه، وأن الإيمان بالقضاء والقدر يخفف من وقع المصيبة ويجنب صاحبها من الوقوع في فتنها.

ثانياً: الرفق والتأني والحلم:

فمن أهم تلك الضوابط والقواعد بعد ظهور الفتن أو تغير الأحوال هو الرفق والتأني والحلم، قال رسول الله ﷺ للأشج عبد القيس: ((إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة))[٢]، وعن عائشة ﵂ أن النبيّ ﷺ قال: ((إن الله رفيق يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه))[٣]، وعنها أن النبيّ ﷺ قال: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلّا زانه، ولا يُنزع من شيئ إلّا شانه))[٤].

يقول أهل العلم: قوله: ((ما كان في شيء إلّا زانه)) هذه الكلمة: (شيء): "نكرة أتت في سياق النفي، والأصول تقضي بأنها تعمّ جميع الأشياء، يعني: أن الرفق محمود في الأمر كله"[٥].

---

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة السابع عشر ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، (٣٥٨٨/٦).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، (٤٨/١) برقم ٢٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، (٢٢١/١٦) برقم ٢٥٩٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، (٢٢١/١٦) برقم ٢٥٩٤.

(٥) آل الشيخ، صالح بن عبد العزيز، الضوابط الشرعية لموقف المسلم من الفتن، دار الصميعي، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، ص ١٥.

فعلى المرء المسلم في كل أمر يَعرض أن يتصرّف تجاهه بالرفق والتؤدة وألّا يكون غضوباً عندما يُثار أو يعتدى عليه فإنه لن يندم بعده أبداً، ولم يكن الرفق في شيء إلّا زانه، في الأفكار وفي المواقف، وفيما يَجد، وفيما يُريد أن يحكم عليه، وفيما يُريد أن يتخذه.

وأكثر ما يهلك الإنسان ويَزل بسبب التعجل في الأمور، سواء في نقل الأخبار أو في الحكم على ما سمع أو غير ذلك، فمن الناس مثلاً مَن يتخطّف الأخبار بمجرّد ما يسمع الخبر يُحدّث به وينقله، وقد جاء في الحديث: ((كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكل ما سمعه))، يسمع عن شخص شيئاً من الأشياء ولا يتأكد أنه قاله أو أنه فعله، ثم يتسرّع أيضاً في الحكم عليه، أنه أخطأ أو ضلّ أو ما أشبه ذلك، وهذا غلط، والتأني في الأمور كله خير[١].

ولذلك عندما أثنى الرسول ﷺ على الأشج عبدالقيس وقال: ((إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة)) مما رآه منه عندما قدِم عليه وفدُ ربيعة، أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها، وعقد ناقته، ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبيّ ﷺ فقرّبه النبيّ ﷺ وأجلسه إلى جانبه، ثم قال لهم ﷺ: ((تبايعون أنفسكم وقومكم)) فقال القوم: نعم، فقال الأشج: يا رسول الله! إنك لم تزاول الرجل عن شيء أشدّ عليه من دينه، نبايعك على أنفسنا ونُرسل مَن يدعوهم، فمن اتبعنا كان منّا ومَن أبى قاتلناه. قال: ((صدقت إن فيك خصلتين)) الحديث.. قال القاضي عياض: فالأناة: تربّصه حتى نظر في مصالحه ولم يَعجل، والحلم: هذا القول الذي قاله، الدال على صحة عقله وجودة نظره للعواقب[٢].

والحلم في الفتن وعند تقلب الأحوال محمود ومثنى عليه، لأنه بالحلم يمكن رؤية الأشياء على حقيقتها، ويمكن بالحلم أن نُبصر الأمور على ما هي عليه. قال المستورد القرشي، عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((تقوم الساعة والروم أكثر الناس)). فقال له عمرو: أبصر ما تقول: قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرّةً بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك[٣].

---

(١) ابن عثيمين، مُحَمَّد بن صالح، شرح رياض الصالحين، تحقيق: عبد الله بن مُحَمَّد الطيار، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (٦/٢٨٥).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم، ليحي بن شرف النووي، (٢/٢٦٣، ٢٦٤).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس، (١٨/٣٠) برقم ٢٨٩٨.

قال الأُبّي: ((هو مدح لتلك الأوصاف، لا أنها مدح لهم، من حيث اتصافهم بها ويحتمل أنه إنما ذكرها من حيث أنها سبب كثرتهم، وإلّا فهم على الضد كما ذكرهم، ولا سيما فيما ذكر مِن كرّهم بعد فرّهم، فإنهم الآن ليسوا كذلك))[١].

فإذا ظهرت الفتنة وتغير الحال، فإنهم يحملون، ولا يعجلون، ولا يغضبون، ليقوا أصحابهم النصارى القتل ويقوهم الفتن، لأنهم يعلمون أن الفتنة إذا ظهرت، فإنها ستأتي عليهم، فلأجل تلك الخصلة بقوا أكثر الناس إلى قيام الساعة[٢].

والحلم والأناة والرفق أمور متقاربة، ويجمعهما مصدر واحد ومَظلة واحدة وهو الصبر؛ لأن الصبر منبع للعديد من الأمور الحميدة والأخلاق الفاضلة، وإن سمّيت بألفاظ أو أسماء غير الصبر كلّ حسب إضافته إلى متعلقه[٣].

ثالثاً: اللجوء إلى الله تعالى:

اللجوء إلى الله عزّ وجل من أهم السبل للوقاية من الفتن قبل وقوعها، والخلاص والنجاة منها قبل وبعد وقوعها، فنجد آدم عليه السلام حين وقع في فتنة الشجرة في الجنة وفتنة إغواء الشيطان له ولزوجه لم يجد سبيلاً للخلاص مما هو فيه وللنجاة مما هو آت إلا أن يتضرع إلى الله ويلجأ إليه طالباً للمغفرة ومعترفاً أمامه بالذنب والخطيئة، وفي ذلك يقول المولى عز وجل على لسان آدم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٤].

لقد تمت خدعة الشيطان لآدم وزوجته، ونجح بإنزالهما من طاعة الله إلى معصيته لتتكشف طبيعة هذا الإنسان، إنه ينسى ويخطئ، إنّ فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان، إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً، ولكنه يدرك خطأه، ويعرف زلته، ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة، إنه يفر إلى الله حين يقع في فتنة أو ينزلق في معصية، إنه يثوب ويتوب، ويكون طلبه من الله الفرج والمغفرة، إنها خصيصة الإنسان التي

---

(١) الشافعي، مُحَمَّد الأمين بن عبد الله العلَوي، الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، (١٢٦/٢٦).

(٢) الضوابط الشرعية، لآل الشيخ صالح بن عبد العزيز، ص ١٨.

(٣) ابن القيم الجوزية، مُحَمَّد بن أبي بكر، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ٢١.

(٤) سورة الأعراف: ٢٣.

تصله بربه وتفتح له الأبواب إليه، الاعتراف والندم والاستغفار والشعور بالضعف، والاستعانة به، وطلب رحمته مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته وإلا كان من الخاسرين(١).

وفتنة النساء من أخطر الفتن وأشدِّها على الرجال لذا لابد فيها من اللجوء إلى الله تعالى وتضرع إليه وإلا وقعت المهالك، وانتشرت المفاسد، لذلك نجد نبي الله يوسف عليه السلام استغاث بالله من فتنة النساء ولجأ إليه لأنه يؤمن أن لا منجي من هذه الفتنة الشديدة إلا الله، ويصوره الله سبحانه بقوله: ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾(٢).

هذه الآية الكريمة ترشد من يقع في فتنة كفتنة النساء كيوسف عليه السلام ومحاولتهن لإيقاعه بهن أن يلجأ إلى الله فلا عاصم له إلا هو، فالإنسان لا ينصرف عن المعصية والفتنة إلا بعون من الله، فالله تعالى إن لم يصرف العبد عن ذلك القبيح وقع فيه، فالتجأ إلى الله حتى يحدث في قلبه أقوى الدوافع المعارضة والنافية لدواعي المعصية لأنه لو لم يحصل تلك الدوافع القوية من الله وتدخل عونه ومساعدته لخشي على نفسه الوقوع في تلك الفتنة والانجرار معها وهذا دليل قوله: "وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ" فأكرم الله يوسف عليه السلام باستجابة دعائه وصرف السوء عنه(٣).

وإذا كان اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء سلاح تعالج به الفتن فلابد في هذا المقام من التنبيه بأن المسلمين يملكون هذا السلاح القوي وهو سلاح التوجه إلى الله والالتجاء إليه فهو أسرع وأقوى وسيلة اتصال بين العبد وربه، لكن هذا السلاح مهمل في العالم الإسلامي مع حاجة أمة الإسلام إليه، وهو يملك أعظم سلاح للوقاية من الفتن والقضاء عليها ألا وهو سلاح الدعاء والتوجه إلى الله واللجوء إليه.

فحري بنا في مثل هذه الأيام أن نزداد إقبالاً على الله ذكراً وإنابة، وصلاة، ونفقة، وبراً بالوالدين، وصلة للأرحام، وإحساناً إلى الجيران، وحرصاً على تربية الأولاد، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة. وجدير بنا أن نكثر من الاستغفار؛ فهو من أعظم أسباب دفع العذاب ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، (١٢٦٩/٣، ١٢٧٠)، "بتصرف".
(٢) سورة يوسف: ٣٢، ٣٣.
(٣) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، (١٣٤/١٨، ١٣٥)، "بتصرف".

يَسْتَغْفِرُونَ[١]، وأن نُقبل على أعمال القلوب من خوف، ورجاء، ومحبة، وغيرها. وحقيق علينا أن نُقبل كذلك على النفع المتعدي من أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ودعوة إلى الله، وإصلاح بين الناس، وإحسان إليهم، وما جرى مجرى ذلك[٢].

رابعاً: المواظبة على الصبر:

الصبر من أهم الأسلحة وأنفعها وأعظمها للوقاية من الفتن قبل وقوعها أو لعلاجها بعد وقوعها، فالصبر هو سلاح لا يتسلح به إلا الصادقون والمؤمنون والطيبون، يميز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، والطيب من الخبيث، ولا يحصل هذا التمييز إلا أيام الفتن التي من صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره تجاهها من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر وقع في فتنة أشدّ منها[٣].

إن الصبر أمام الفتن تربية للنفوس، وإعداد لها كي لا تطير شعاعاً مع كل نازلة ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة، ولا تنهار جزعاً أمام الشدّة، إنه التجمل والتماسك والثبات حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة ويجعل الله تعالى بعد عسر يسراً[٤].

والمقصود بالفتنة التي يقف المسلم تجاها بسلاح الصبر هي تلك الفتنة وذلك الابتلاء الذي لا يقدر على إزالته بنفسه أو منعه عن نفسه وذلك مثل المصائب التي تصيب المسلم في بدنه أو أهله أو ماله، أو أن يبتلى في دينه بمحاولة صرفه عنه، كما كان يحدث لأبناء الجيل الأول في مكة من أصحاب رسول الله ﷺ[٥].

فلابدَّ للإنسان المسلم من الصبر على الفتنة التي تصيبه في نفسه أو ماله أو ولده فهذه الفتنة والابتلاء سنة الله في الكون بغرض الاختبار والتمحيص، ثم بعد ذلك مَن صبر فله الفوز والفلاح والبشرى من الله عز وجل كما يقول: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

---

(١) سورة الأنفال: ٣٣.

(٢) معالم في التعامل مع الفتن، لمحمد بن ابراهيم الحمد، ص ٢٩، ٣٠.

(٣) انظر: ابن القيم، مُحَمَّد بن أبي بكر، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص ٥٣٦.

(٤) طريق الدعوة في ظلال القرآن، لأحمد فائز، ص ٢٠٠.

(٥) انظر: المقدسي، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة، مختصر منهاج القاصدين، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ص ٢٩١.

وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ[١].

فحين ابتلى الله سبحانه وتعالى نبيه أيوب عليه السلام بمجموعة من الابتلاءات في ماله وولده وجسده واجه هذه الفتنة بسلاح الصبر حيث يقول تعالى عنه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٢].

أي علمناه صابراً على البلاء، قد شكا إلى الله ما به وطلب الرحمة منه والشفاء وكان دعاؤه لله بالشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم أن أيوب لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به، وقد بلغ من أمر أيوب ـ عليه السلام ـ أنه لم يبق من جسده سليماً من البلاء إلا قلبه ولسانه وكان صابراً محتسباً مسلماً أمره لله رب العالمين[٣].

وها هو القرآن العظيم يحث النبي ﷺ على مواجهة فتنة قومه بالصبر والمصابرة، وهذه الدعوة القرآنية موعظة لكل مؤمن يسير على نهجه، حيث نلمس هذا الخطاب القرآني الذي يحث على الصبر في أكثر من موضع في كتاب الله لقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ [٤]، وقوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[٥].

والوصية بالصبر في زمن الفتن هي التي أوصى الله سبحانه بها رسوله ﷺ والتي أوصى بها ﷺ أصحابه في زمن الفتنة والابتلاء، فالصبر هو خير وسيلة لعلاج الفتن وتجاوزها.

إنّ المؤمن في هذه الحياة الدنيا مُعرّض لأن يفتن في دينه أو ماله أو جسده أو ولده، وهي سنة الله مع أنبيائه وأوليائه وأصفيائه وليس أمام المؤمن إزاء كل هذه الفتن إلا الصبر والمصابرة، فما بعد الصبر إلا الفرج وما بعد العسر إلا اليسر، فالصبر عند الفتن هو خير وسيلة لاجتيازها والوقاية مما هو أشدّ وأخطر منها.

خامساً: الهجرة من مواطن الفتنة:

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥ – ١٥٧.

(٢) سورة ص: ٤٤.

(٣) النسفي، عبدالله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، (٤٣٩/٢)، "بتصرف".

(٤) سورة النحل: ١٢٧.

(٥) سورة الأحقاف: ٣٥.

من أهم الضوابط التي يسبب الوقائية من الفتن هو هجر مواطن الفتنة التي لا يستطيع المسلم فيها الحفاظ على دينه، وتجنب حرمات الله، والانتقاص من إيمانه أو فقده، والانتقال إلى دار أو موطن يكون فيه المناخ مهيأً لعبادة الله واتقاء الفتن، وهذا ما يوضحه القرآن الكريم في معرض عتابه وتأنيبه لأناس عاشوا في زمن الفتن والمعاصي والبعد عن دين الله بحجة الاستضعاف في الأرض وعدم تمكنهم من طاعة الله والقيام على حدوده والمحافظة على شرعه، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (*) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[١].

نزلت هذه الآيات في أناس تكلموا بالإسلام في مكة ولم يتمكنوا من الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستضعاف أهل مكة لهم، وتسلطهم عليهم، فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهذا يدل على أن المسلم إذا فتن في دينه، وأصبح عاجزاً عن أداء شعائره، فعليه أن يهجر مواطن الفتن إلى أي بلد آخر، يصبح فيه قادراً على الحفاظ على دينه، وآمناً فيه من الفتن[٢].

وقال ابن عباس ﷺ: نزلت هذه الآيات في قوم من أهل مكة كانوا قد أسلموا حين كان الرسول ﷺ بمكة، فلما هاجر أقاموا مع قومهم بمكة ففتنوهم فارتدوا، وخرجوا يوم بدر مع المشركين فكثّروا سوادهم، وقتلوا ببدر كافرين، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ولكنهم أكرهوا على الكفر والخروج فنزلت هذه الآيات فيهم، والمراد بالمستضعف هو المعدود ضعيفاً ولا يعبأ بما يصنع به وليس هو في عزةٍ تُمكّنه من إظهار إسلامه، فلذلك يضطر إلى كتمانه.

وقولهم: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ أي تخرجوا من الأرض التي تستضعفون فيها، فبذلك تظهرون الإيمان، وظاهر الآية أن الخروج إلى كل بلد غير بلد الفتنة يعدُّ هجرة، وجئ باسم

---

(١) سورة النساء: ٩٧، ٩٨.

(٢) الخازن، علاءالدين علي بن محمد البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (٤١٦/١)، "بتصرف".

الإشارة في قوله: ﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ للتنبيه على أنهم أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة وذلك لأنهم كانوا قادرين على التخلص من فتنة الشرك بالخروج من أرضه[١].

ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان متجاوزاً تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين، وفي بيئة معينة، يمضي حكماً عاماً يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أية أرض، وتمسكه أمواله ومصالحه أو قراباته وصداقاته، إو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها متى كان هناك في الأرض دار إسلام، يأمن فيها المرء على دينه، ويجهر فيها بعقيدته، ويؤدي فيها عباداته ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله[٢].

ولقد بينت السنة النبوية أن الهجرة والفرار من المواطن التي غلبت عليها المعاصي والبدع وأكل الحرام إلى دار أخرى لمن قدر على ذلك أمر واجب على كل مسلم وقت الفتن بغرض المحافظة على الدين وعدم الوقوع في الفتنة، قال الإمام مالك رحمه الله: "لا يحلّ المكث بأرض يُسبّ فيها السلف"[٣]، وقد ورد في الحديث عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ولكن تاب ورجع وأناب إلى الله... طول الحديث، وفي آخره هو هاجر من أرض المعاصي إلى أرض المقدسة، فأدركه الموت في الطريق، فتاب الله عليه فقبضته ملائكة الرحمة... [٤].

قال الإمام النووي في شرح الحديث: "في هذا استحباب مفارقة التائب للمواضع التي أصاب فيها الذنوب، والأخدان والمساعدين له على ذلك، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبّدين"[٥]. وقال ابن حجر رحمه الله: "فيه فضل التحوّل من الأرض التي يصيب فيها الإنسان المعصية حتى لا يتذكر أفعاله الصادرة قبل ذلك، ولذلك قال له الأخير: لا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء"[٦].

---

(١) انظر: التونسي، مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار التونسية، تونس، ١٩٨٤م، (١٧٤/٥ – ١٧٦)، "بتصرف".

(٢) انظر: "في ظلال القرآن"، (٧٤٣/٢ – ٧٤٥)، "بتصرف".

(٣) ابن العربي، قاضي مُحَمَّد بن عبد الله، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، (٤٨٤/١).

(٤) انظر: القصة مفصلاً في صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، (١٩٨/٤) برقم ٣٤٧٠، وفي صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، (٢٢١١/٤) برقم ٢٧٦٦.

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم، ليحي بن شرف النووي، (٨٣/١٧).

(٦) الفتح الباري، (٥٩٨/٦).

وقد بينت القرآن الكريم أن هجر العصاة والمبتدعين والفاسقين أمر لازم على كل مسلم وقت الفتن بغرض المحافظة على الدين لأنهم بُؤرةٌ ومنبع للشهوات والشبهات، بعد نصحهم ومحاولة هدايتهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾[٢].

فمن خلال ما تقدم يتبين للباحث أثر الهجرة من مواطن الفتن في الحفاظ على الدين والإيمان ويتبين أيضاً أن الهجرة من مواطن الكفر إلى دار الإيمان وسيلة عظيمة من وسائل الوقاية من الفتن.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات:

1. الوعي والتوعية الدينية طريق مضمون لنجاح الدعوة إلى الله تعالى، إذ أن كثيرا من التداعيات التي تشهدها الساحة الإسلامية إنما تعود إلى غياب الوعي وانعدام التوعية، فلا تحقيق لمقاصد الشريعة الإسلامية، ولا نهضة بدون وعي وبدون توعية.

٢. ضرورة إعداد استراتيجية حضارية شاملة للتوعية الدينية تساهم في تنمية الوعي بكل القضايا التي يحتاجها المسلم في دينه ودنياه.

٣. أن الفتنة إذا ما وقعت فإن هناك ضوابط وقواعد شرعية استنبطها العلماء من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح إذا ما تمسك بها المجتمع المسلم فإنه لن يندم أبداً، فبعضها يتعلق قبل وقوع الفتن وهي: (الدعاءوالتعوّذ، التزام حصول العلم، مصاحبة أهل العلم والصالحين، الإمتناع عن الإتيان في مواطن الفتن، وصيانة اللسان وكفّه)، وبعضها يتعلق أثناء الفتن، وهي: (الإيمان بالقدر خيره وشرّه، الرفق والتأني والحلم، اللجوء إلى الله تعالى، المواظبة على الصبر، والهجرة من مواطن الفتنة).

٤. بذل العناية والاهتمام الكبير بالشدة لتحصين المسلمين في الفتن والتعرّف على حقيقتها، وأهدافها وأسبابها ومعالجتها، وكيفية الاستعداد لها، والتعامل معها بما يتناسب خطورتها وأهميتها، والنظر في آثارها الواقعية على الحياة البشرية.

---

(١) سورة الأنعام: ٦٨.

(٢) سورة النساء: ١٤٠.

٥. حفظ اللسان والتبين والتثبت عند سماع الشائعات أو أي نبأ أو خبر لاسيما وقت الفتن والمحن، لأن الإشاعة تعدّ من أمضى الأسلحة التي يستعملها أعداء الأمة، لاختراق صفوفها، وتمزيق وحدتها إبّان الفتن.

٦. فقدان الوعي أو قلته يعني انعدام الر ؤية السليمة التي يؤدي إلى عدم فهم مجريات الأمور، وعدم القدرة على وضع خطط مناسبة للدعوة إلى الله، وقد يؤدي بصاحبه إلى تنفيذ مخططات أعدائه دون أن يدري، ومن ثم يكون الضياع والضعف والانهيار.